غزوة خيبر

سار النّبي صلّى الله عليه وسلم إلى خيبر، في أواخر محرم للسنة السابعة من الهجرة، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مئة ميل شمال المدينة جهة الشام.

وكان مع النّبي صلّى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ألف وأربع مئة مقاتل، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا غزا قوما، لم يغر عليهم حتى يصبح، فبات رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأقبل، فرآه عمال خيبر وقد خرجوا بمساحيهم وفؤوسهم، يقصدون مزارعهم، فلما رأوه صلّى الله عليه وسلم، صاحوا: محمد، ثم ولّوا هاربين، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» متفق عليه .

فوعظ رسول الله صلّى الله عليه وسلم الناس، وابتدأت المعارك وأهل خيبر– وقد تحصّنوا بحصونهم– وأخذ المسلمون يفتحونها حصنا حصنا، إلا الحصنين الأخيرين: الوطيح، والسّلالم، فقد حاصرهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة.

فلما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء، فرجع ولم يفتح له، ثم أخذه عمر، فرجع ولم يفتح له، فقال النّبي صلّى الله عليه وسلم لأدفعنّ لوائي غدا إلى رجل يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله. فبات الناس ليلتهم يتساءلون أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فقال أين علي بن أبي طالب؟ فقيل هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله صلّى الله عليه وسلم في عينيه ودعا، فبرأ، فأعطاه الراية، فقال عليه الصلاة والسلام: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. ثم خرج فقاتل، فكان الفتح على يديه. وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من الأموال.

أما ذانك الحصنان، فقد ظل المسلمون يحاصرونهما، فسألوه صلّى الله عليه وسلم أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال، فوافقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم على ذلك. ثم إنهم سألوه أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعونها، ولهم شطر ما يخرج منها، فصالحهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم على ذلك وقال لهم: على أنّا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم» متفق عليه .

فلما اطمأن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، أهدت له زينب بنت الحارث، شاة مشوية فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلم، تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء، قد أخذ منها فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها. ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني

أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت، فقال ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيّا فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ومات بشر من أكلته» .

وقسم رسول الله صلّى الله عليه وسلم غنائم خيبر بين المسلمين، وكانت صفية بنت حيي بن أخطب- زعيم اليهود- بين من أسر من نساء خيبر، فأعتقها رسول الله صلّى الله عليه وسلم- بعد أن أسلمت- وتزوجها، وجعل مهرها عتقها (متفق عليه) .

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة

قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الحبشة وهو في خيبر جعفر بن أبي طالب ومن معه وهم ستة عشر رجلا وامرأة وجمع آخر كانوا في اليمن. فأسهم لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الغنائم، بعد أن استأذن في ذلك المسلمين.

العبر والعظات:

هذه الغزوة، وهي أول غزوة تأتي بعد وقعة بني قريظة وصلح الحديبية، فلها وضعا آخر، وإنها لتختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي كانت من قبلها، وهي تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت في مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية.

فغزوة خيبر أول غزوة بدأها رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأغار بها فجأة على اليهود الذين استوطنوا بقاع خيبر، دون أن يبدأوا المسلمين بأي محاربة أو قتال.

لقد كان السبب الوحيد لها هو دعوة اليهود إلى الإسلام، ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم عن قبول الحق وأحقادهم التي في صدورهم على الرغم من الدعوة السلمية التي قامت مدة طويلة على الأدلة والبراهين. ولذلك بات رسول الله صلّى الله عليه وسلم الليلة الأولى من وصوله إلى خيبر دون أن يشعر أحدا بوجوده أو أن يقاتل أحدا، وانتظر حتى إذا أصبح ثم أغار عليهم وقاتلهم على ذلك.

ولقد استنبط العلماء من غزوة خيبر هذه الدلالات وأحكاما كثيرة مختلفة، نذكر فيما يلي جملة منها:

أولها: (جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها، بدون إنذار سابق أو دعوة مجددة) ، وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء، فذلك ما فعله رسول الله صلّى الله عليه وسلم في إغارته على خيبر.

ثانيهما: (تقسيم الغنائم على الأساس الذي ورد ذكره) ، وهو تقسيم أربعة أخماسها بين الغانمين يعطى للراجل سهم، وللفارس سهمان؛ سهم له وسهم لفرسه، والخمس الباقي يوزع أخماسا على من نصت عليهم الآية القرآنية: وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ سورة الأنفال، وسهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم من هذا الخمس يوزع من بعده على مصالح المسلمين.

ثالثها: (جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال) ، وذلك بعد استئذان أصحاب الحق فيها. فقد أشرك النبي صلّى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب ومن معه في الغنائم، بإذن من الصحابة.

رابعها: (مشروعية عقد المساقاة) ، وهي أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر ليتعهده بالسقي والتربية على أن الثمار تكون بينهما.

خامسها: (مشروعية تقبيل القادم والتزامه) ، وهو مما لا نعلم فيه خلافا معتدا به إذا كان قادما من سفر أو طال العهد به، أماعن اللقاءات العادية المتكررة بين الرجل وصاحبه، والتقبيل أو الالتزام أمر غير مرغوب فيه في مثل هذه الحال.

***** ثم إن في هذه الغزوة حادثتين، ثابتة بالحديث الصحيح، وهي من الخوارق العظيمة التي أيد الله بها محمدا صلّى الله عليه وسلم.**

الأولى: أنه صلّى الله عليه وسلم بصق في عين علي رضي الله عنه وكان يشتكي منها، فبرأت في الوقت نفسه.

الثانية: ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة.

ثم إن يهود خيبر مكثوا يزرعون الأرض على النصف من نتاجها، إلى أن كانت خلافة عمر رضي الله عنه، فقتلوا أحد الأنصار فقال رضي الله عنه للناس: «إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان قد عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود» .

وهكذا تمّ إخراج اليهود من الجزيرة العربية، ولولا بغيهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما طوردوا ولما أخرجوا. ولكن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.